وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ
ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ
حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ۚ
أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ
بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

[٦٤] واعلوا أيها الناس أن حقيقة هذه الحياة الدنيا ما هي إلّا لهوٌ ولعب، ينشغل بها كثيرٌ من الناس عن الدار الآخرة التي هي الحياة الحقيقية الكاملة الباقية التي لا تزول، ولو كان الناس يعلمون حقيقة ذلك لمَا آثروا الباقي على الفاني.

[٦٥] يخبر جل وعلا أن المشركين إذا ركبوا السفينة، وسارت بهم في البحر، وتلاطمت بهم الأمواج، وأوشكوا على الغرق، واشتدَّ بهم الكرب؛ دعوا الله ووحّدوه مخلصين له العبادة، وتركوا جميع ما يُعبد من دون الله من الآلهة الباطلة، فلمّا زالت عنهم الشدّة، وسلّمهم الله، ونجّاهم من الغرق، ورجعوا إلى البر؛ إذا هم يشركون معه في العبادة الآلهة الباطلة التي لا تنفع ولا تضرّ، وينسبون نجاتهم من الغرق لمهارة ربان السفينة، ونجاتهم من الحوادث لمهارة قائد المركبة، ونجاتهم من المرض أو العملية الجراحية لخبرة الطبيب، ونحو ذلك، وينسون مسبب الأسباب، وهو الله جل في علاه.

[٦٦] فلما نجى سبحانه هؤلاء المشركين من الغرق فإذا بهم يشركون بالله الآلهة والأنداد ليكون عاقبة إنقاذ الله لهم من الغرق هو الكفر به سبحانه وبما أنعم عليهم من الأموال والأولاد والصحة وغيرها، فليتمتعوا في هذه الحياة الدنيا الزائلة مُتَعًا محدودة؛ فسوف يعلمون عاقبة شركهم، وكفرهم يوم الحساب والجزاء، وفي هذا تهديد ووعيدٌ لهم.

[٦٧] ثم قال سبحانه وتعالى: أولمْ ير هؤلاء المكذّبون أنَّا جعلناهم مُمَكَّنين آمنين في بلدٍ آمنٍ لا يعتدي عليهم فيه أحد - دون غيره من البلاد -، إذ القتل والسلب والنهب والحروب تتخطف الناس فيما حولهم من البلاد! أفبالباطل - وهو الشرك وما يكرهه الله ويأباه -، يؤمنون ويصدّقون، وبنعمة الله وتوحيده يجحدون ويكذِّبون؟!

[٦٨] واعلموا أيها الناس أنه لا أحد أشدّ ظلمًا، ولا أبشع طريقةً من الذي يفتري الكذب على الله بادّعاء شريكٍ له، أو كذَّب بالدين الحق لمّا جاءه على أيدي أنبياء الله ورسله، إن في النار لمسْكنًا ومستقرًّا للكافرين الجاحدين.

[٦٩] ختم جل وعلا السورة في الحثّ على الجهاد وبذل الوسع في إنهاك العدو، وَوَعَدَ سبحانه المجاهدين المخلصين أنه معهم، ومن يكن الله معه فلن يغلبه أحد، وأطلق الجهاد في هذه الآية ليشمل جهادَ كلٍّ من النفس والشيطان والقرناء والأعداء، والمعنى: والذين جاهدوا النفس والشيطان والهوى وأعداء الدين ابتغاء مرضاة الله فسوف يهديهم طريقه والسير إليه، ومجاهدة النفس تكون بمحاسبتها ومراقبتها، وحفظ الوقت وشغله فيما ينفع، ومجاهدة الشيطان تكون بالحذر منه، والتحصن منه بالأذكار الواردة، وكثرة الاستغفار، وعصيانه إذا وسوس، ومجاهدة الأعداء تكون بقتالهم بالنفس والمال، وتكون أيضًا بالحجة والبيان، والردِّ عليهم وتفنيد شبهاتهم، واعلموا أيها الناس أن الله مع المحسنين في أقوالهم وأفعالهم يحفظهم ويلهمهم سبل النجاة.

سورة الرّوم

سورة الروم مكيّة وآياتها ستّون آية.

[١] سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢-٣-٤-٥] يخبر جل وعلا أن فارس انتصرت على الرُّوم في أدنى أرض الشام إلى فارس، وسوف تعود الكَرَّة للروم وينتصرون على الفرسِ في بضع سنوات، لأن الأمر كله لله سبحانه قبل انتصار الفرس على الروم وبعد انتصار الروم على الفرس، وأن كل ذلك يتم تحت علم الله وتدبيره، ويوم أن ينتصر الروم على الفرس سيفرح المؤمنون من أصحاب محمد ﷺ بهذا النصر؛ لأن الله نصر أهل الكتاب أتباع موسى وعيسى عليهما السلام على المجوس عبدة النار، ونصر المسلمين على المشركين ببدر، والله ينصر من يشاء، ويهزم من يشاء من عباده، وهو العزيز الذي لا يغلبه غالب، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

وقد تحقق ذلك فانتصر الرومُ على الفرسِ بعد سبع سنين من هزيمتهم، وفرح المسلمون بذلك؛ لكون الروم أهل كتاب وإن حرَّفوه، وأنهم أقرب للمؤمنين من عبدة النار.

وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ
غَٰفِلُونَ ٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا
مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ
عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟
بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
١١ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن
شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ
١٣ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥

[٦] يخبر جل وعلا أن انتصار الروم علىٰ فارس وعْدٌ منه سبحانه، ولا شك أن وعده لا يمكن أن يتخلف أبدًا، ولابد أن يتحقق، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون أن وعد الله حق وأنه لا يخلف الميعاد.

[٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا من صناعاتها وزخارفها الفانية، ولكنهم في غفلةٍ تامةٍ عن الدار الآخرة، وعن ما ينتظرهم فيها من الجزاء والحساب؛ وبعد الجزاء والحساب فإن النعيم المقيم سيكون للمؤمنين، والعقاب الشديد بالنار سيكون للمجرمين.

[٨] أولم يتفكر هؤلاء المعاندون الجاحدون في أنفسهم وفي خلق الله لهم، وإيجادهم من العدم؟! وأن الله جلَّ في علاه لم يخلق السماوات والأرض عبثًا؛ بل خلقهما بالحق والعدل والحكمة ليختبر الناس أيهم أحسن عملًا، وقد وقَّت الله للسماوات والأرض أجلًا وميعادًا، ثم تنقضي الدنيا وتزول وتجيء القيامة فتبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات، وإنَّ كثيرًا من الناس ينكرون لقاء الله، ويكذبون بالبعث!!

[٩] أولم يسرْ هؤلاء المكذبون بالبعث في الأرض فينظروا نظر تأملٍ واعتبارٍ إلىٰ مصير الأمم التي كانت قبلهم، حيث كانت تلك الأمم أشد منهم قوَّةً في الأبدان، وأكثر تقليبًا في الأرض للزراعة، وأكثر عمارةً، وأحكم بناءً منكم للقصور والدور، ثم جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، والمعجزات الواضحات الدالات علىٰ وحدانية الله وعظمته؛ فلم يؤمنوا بها، وكذّبوهم؛ فأهلكهم الله وعمَّهم بعذابه، فما نفعتهم قوتهم، ولا عمارتهم الأرض، وما كان الله ليظلمهم فيعذبهم بغير ذنب، ولكن أنفسهم كانوا يظلمون بالشرك، وبتكذيب الأنبياء والرسل.

[١٠] ثم كانت الحالة السيئة والمآل الشنيع، والمرجع المخزي عاقبةً لأهل السوء والكفر والتكذيب؛ ذلك بأنهم جحدوا آيات الله ولم يؤمنوا بها، ولم يتبعوا المرسلين، وبأنهم كانوا من الساخرين المستهزئين المستهترين بآيات الله.

[١١] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه هو وحده الذي يبدأ الخلق ويوجده من العدم، ثم يفنيه، ثم يعيده مرةً أخرىٰ للجزاء والحساب.

[١٢] واعلموا أيضًا يوم أن تقوم الساعة سوف يتورط المشركون المجرمون، ويأيسون من كل خير ونجاة، والإبلاس: هو الانقطاع، أي: أنهم يسكتون حيث لا حجة لهم.

[١٣] واعلموا أيضًا أن المشركين المجرمين لم يكن لهم يوم القيامة شفعاء يشفعون لهم لينجوهم من العذاب؛ بل يومها يكفر التابع بالمتبوع، والمتبوع بالتابع، ويجحد كلٌّ منهما الآخر.

[١٤] واعلموا أيضًا أن الناس يوم تقوم الساعة سوف يفترقون إلىٰ فريقين (مؤمنين وكفَّار).

[١٥] ثم بين سبحانه أن الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا رسله، وبرهنوا علىٰ إيمانهم بالعمل الصالح بجوارحهم، فهم في رياض الجنة الغنّاء في حبور، وسعادة، وسرور.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

[١٦] وبين سبحانه أن الذين كفروا وجحدوا آيات الله وكذّبوا بها، وكذّبوا بلقاء الله واليوم الآخر، وأنكروا البعث؛ فأولئك في عذاب جهنم مقيمون إقامةً دائمة.

[١٧] وهذا إرشاد منه جل وعلا لعباده المؤمنين أن يسبحوه وينزِّهوه عن الشريك والصاحبة والولد، وأن يصفوه بصفات الكمال، وأن يحقِّقوا ذلك بجوارحهم كلها حين يأتي وقت المساء وحين يأتي وقت الصباح.

وحيث إن التسبيح هو التقديس والتنزيه، فالمطلوب من الإنسان تنزيه الله والإخلاص له وعبادته في كل الأوقات؛ لأن المرء إنما خلق لعبادة الله، وجميع أعماله الدنيوية والسعي في طلب الرزق كلها أسباب لاستمراره في العبادة ومعونة له علىٰ ذلك.

وقد قيل: إن هذه الآية مدنية ولذا حمل بعضهم التسبيح في الآية علىٰ الصلاة لاشتمالها علىٰ الحمد والتنزيه والذكر ومنه «سبحة الضحىٰ»، وقال القرطبي: إن قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات:١٤٣]، يعني: من المصلين.

[١٨] واعلموا أيها الناس أن له جل في علاه الحمد والثناء في جميع الأماكن، وفي كل الأوقات علىٰ الدوام، فله الحمد في السماوات والأرض، وله الحمد ليْلًا ونهارًا.

وهذه الآية والتي قبلها جامعة للصلوات الخمس بأوقاتها، يعني: أداء الصلاة في أوقاتها كما قال ابن عباس.

[١٩] وهذا إخبار منه جل في علاه أنه هو المتفرِّد بإخراج الحي من الميت كإخراج الإنسان من النطفة، والنبات من الأرض الميتة، وهو سبحانه المتفرد بإخراج الميت من الحي؛ كإخراج كالنطفة من الإنسان، والبيضة من الطير، وهو سبحانه الذي ينزل المطر من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها ويباسها، وبمثل هذا الإحياء أيها الناس تُبعثون من قبوركم للحساب والجزاء.

[٢٠] وأخبر جل وعلا أن من العلامات الدالة علىٰ وحدانيته، ووجوب توحيده وإفراد العبادة له وحده دون من سواه: أنه أوجدكم أيها الناس وجعل أصل خلقتكم التراب، ثم أنتم تتكاثرون وتتناسلون وتنتشرون في الأرض.

[٢١] ومن العلامات الدالة علىٰ وحدانيته ورحمته بخلقه جل في علاه: أن خلق لكم من جنسكم أزواجًا من النساء، تسكنون إليها بالزواج، وتألفونها، وتميلون إليها، وجعل بينكم محبَّةً وشفقةً ورحمةً، إن في ذلك لآياتٍ بيناتٍ واضحاتٍ علىٰ وحدانية الله ورحمته بخلقه لقوم يُعملون عقولهم، ويتفكرون بها.

[٢٢] ومن العلامات الدالة علىٰ قدرته ووحدانيته سبحانه وتعالىٰ: إيجاد هذه السماوات السبع بما فيها؛ دون عَمَدٍ مرئية، وإيجاد هذه الأرضين، وأيضًا: اختلاف لغاتكم ولهجاتكم، واختلاف ألوانكم وتباينها، إن في كل ذلك لآياتٍ لأصحاب العقول والبصائر.

[٢٣] ومن العلامات الدالة علىٰ قدرته علىٰ البعث جل شأنه: أن الله هيأ لكم النوم في الليل، وأحيانًا في النهار كوقت القيلولة، ثم إذا خرج النهار تنتشرون في الأرض وتسعون فيها لطلب أرزاقكم ومعاشكم، إن في هذا النوم وذلك الانتشار لمثال حيّ علىٰ البعث والنشور، وإنما ينتفع بهذه الآيات من يستمعون إليها سماع تدبر وفهم وبحث عن الحقيقة.

[٢٤] ومن العلامات الدالة علىٰ قدرته وعظمته عز وجل: أن يريكم البرق فتخافون أن تصيبكم الصواعق الشديدة، وتطمعون في المطر أن ينزل عليكم فتنتفعون به، فينزوله تحيا الأرض بعد جفافها وقحطها، وتنبت زرعها، إن في ذلك لآياتٍ وعلاماتٍ تدل علىٰ قدرة الله وعظمته؛ لقوم يعملون عقولهم، ويتفكرون في هذه الآيات.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا
مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن
شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ
كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ
فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ
لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟
دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

[٢٥] يخبر جل وعلا أن من آياته العظيمة: أن تثبت وتستقرّ السماوات والأرض علىٰ هذه الحالة التي أوجدها عليه ليستقيم بها الكون، وتصلح بها شؤون الخليقة، فالسماء لا تقع ولا تنطبق علىٰ الأرض، والأرض لا تتزلزل وتضطرب إلا بإذنه، كل ذلك بفضل الله ورحمته، ثم إذا دعاكم ليوم الجزاء والحساب إذا أنتم تخرجون مستجيبين مسرعين - لا يسعكم غير ذلك -.

[٢٦] واعلموا أيها الناس أن لله وحده كل من في السماوات والأرض من ملائكة وأنس وجن وغير ذلك من المخلوقات، خلقًا وملكًا وتصرفًا، وكل هؤلاء منقادون لعبادته وطاعته؛ سواء الطاعة القهرية أو الطاعة الإرادية؛ فالجميع خاضعون لما يريده من حياة وموت وبعث وصحة ومرض وغنىٰ وفقر وعز وذل، ويمتاز المؤمنون بالطاعة القلبية غير القهرية.

[٢٧] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي أوجد الخلق من العدم، ثم يفنيه، ثم يعيده حيًّا بعد الموت، وإعادة الخلق في البعث أهون وأسهل من ابتداء خلْقهم، فإذا كنتم تقرون بالخلق الأول فيلزمكم الإقرار بالبعث، فالقادر علىٰ ابتداء الخلق من العدم قادرٌ من باب أولىٰ علىٰ إعادته، ثم بين عز وجل أن له الأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا، وهو العزيز الذي قهر وغلب كل شيء، الحكيم الذي له الحكمة الواسعة، والتدبير الحسَن تعالىٰ وتقدَّس، وهو الذي لا يعجزه شيء.

[٢٨] وضرب الله لكم أيها الناس مثلًا قريبًا منكم، وفي أنفسكم، وهذا المثل أنه ليس لكم من عبيدكم وخدمكم من يشارككم في التصرف في أموالكم، إذ لا تقبلون ذلك منهم أبدًا، ولا تقرونه، ولا تخافون منهم خوفكم من مشاركة الأحرار لكم في التصرف في أموالكم وإنفاقها، فكذلك الله جل في علاه لا يرضىٰ أن يُشرَك معه أحد في عبادته - لا ملكٌ مقرب، ولا نبي مرسَل -، وبمثل هذه الأمثال فإن الله جل في علاه يوضح الحقائق والمهمات بتنويع الأساليب وضرب الأمثال لقومٍ يُعمِلون عقولهم ويتأملون بها فيما يُقال لهم.

[٢٩] لكن الظالمون لأنفسهم المجاوزون حدودهم اتبعوا أهواءهم علىٰ جهل منهم، وتركوا العلم، واستمروا علىٰ ضلالهم وغوايتهم، ومن لم يقدِّر الله له الهداية، فلن يَقْدِرَ أحدٌ علىٰ هدايته - كائنًا من كان -، وما لهؤلاء الظالمين المتبعين أهواءهم من ناصرين ينصرونهم إذا حلّ بهم عقاب الله، ونزل بهم عذابُه.

[٣٠] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ ومن اتبعه بأن يُقبل علىٰ دين الإسلام وأن يستقيم عليه، وأن يحرص علىٰ عبادة الله وطاعته، وأن لا يلتفت إلىٰ غيره من الأديان والملل، والوجه هو الجارحة المعروفة التي تميز الإنسان عن الآخرين من بني جنسه، وهنا عبر به عن الذات كقوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٢]، وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، واعلم يانبي الله أن دين الإسلام هو فطرة الله فاثبت عليه، وعليكم أيها الناس أن تلزموا هذا الدين وهذه الملة التي فطر الناس عليها؛ فإنه جل وعلا خلق الناس علىٰ التوحيد كما في الحديث الذي أخرجه مسلم عن عياض: «**وإني خلقت عبادي حنفاءَ كلَّهم فاجتالتهم الشياطين**»(١)، واعلموا أن هذا الدين هو الذي ارتضاه الله لكم فلا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه، وهذا الدين هو الطريق المستقيم الموصل إلىٰ رضا الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لأنهم اتبعوا الشيطان والأهواء الزائفه، والتقاليد الفاسدة، وتركوا توحيد الله بالعبادة والتي أمروا بها وأمرت بها يارسول الله.

[٣١-٣٢] وكونوا أيها الناس رجَّاعين إلىٰ الله، كثيري التوبة، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وحافظوا علىٰ الصلاة في أوقاتها، وأدوها علىٰ أكمل وجهٍ وأتمِّ هيئة، واحذروا كل الحذر أن تكونوا من الذين يدعون مع الله إلهًا آخر. ولا تكونوا كأولئك الذين تفرقوا في الدين وهم اليهود والنصارىٰ، وقد تعددت آلهتهم الباطلة، فتعددت فرقهم وأحزابهم وطوائفهم، وكل فرقة تنتصر لما هي عليه وتتحزب له، وتحارب غيرها عليه، وكل فرقة فرحةٌ بما هي عليه، زاعمة لنفسها بالحق والصواب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم
مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ
سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا
ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا
لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن
زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

[٣٣] بين جل وعلا أن بعض الناس إذا أصابه شيء من الضرِّ من مرض أو قحط أو شدّة، وخافوا الهلاك؛ دعوا الله بإخلاص ويقين ووحدوه، وتضرعوا ورجعوا إليه، وتركوا الإشراك به، فإذا كشف الله عنهم الضرّ ونجَّاهُم ورحمهم من الضُّر الذي مسَّهم؛ إذا فريقٌ منهم يرجعون إلىٰ عبادة غير الله وينسبون الفضل في نجاتهم إلىٰ غير الله، فينسبون شفاءهم من الأمراض لمهارة الطبيب، ونجاتهم من البحر أو البر لمهارة قائد المركبة أو السفينة؛ بل إذا حدثت زلازل أو براكين يقولون: هذه كوارث وحوادث طبيعية، وهذا سونامي، وهذا كذا وهذا كذا، وينسون مسبب الأسباب، وأنها بسبب ذنوبهم.

[٣٤] ليكون عاقبة جحودهم ورجوعهم إلىٰ الشرك هو الكفر بما أعطيناهم من الرحمة والنجاة مما كانوا منه يخافون، فتمتّعوا أيها المشركون بما بقي لكم من آجالكم متعًا محدودةً زائلةً؛ فسوف تعلمون عاقبة شرككم وكفركم وجحودكم نعمة ربكم.

[٣٥] ثم يقول سبحانه: هل أنزل الله جل في علاه علىٰ هؤلاء المشركين حجةً ظاهرةً تحثهم علىٰ الثبات علىٰ شركهم؟! الجواب: لم ينزل سبحانه علىٰ أنبيائه إلا التوحيد وعبادته وحده وترك عبادة ما سواه، وأمرهم أن يدعوا الناس إلىٰ هذا التوحيد وهذه العبادة.

[٣٦] وإذا أذقنا الناس رحمةً من صحة وغنىً ورخاءٍ؛ فرحوا بذلك فرح أشرٍ وبطر، وإذا أصابهم ما يسوؤهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم؛ إذا هم يائسون من رحمة الله، ومن زوال ما أصابهم من السوء.

[٣٧] ويقول سبحانه: أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله هو الذي يوسع الرزق علىٰ من يشاء امتحانًا واختبارًا، ويضيِّق الرزق علىٰ من يشاء أيضًا امتحانًا واختبارًا؟! واعلموا أيها الناس أن في ذلك التدبير من الله وتقسيم الرزق لآياتٍ للمؤمنين تدل علىٰ رحمة الله وحكمته.

[٣٨] يأمر جل وعلا الإنسان أن يعطي قريبه حقه من نفقة، وصدقة، وهدية، وصلةٍ، وبرّ، وكذلك يعطي المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة حقه من الصدقة، وكذلك يعطي ابن السبيل وهو الغريب المسافر الذي انقطعت به السبل حقه من الصدقة، ثم بين سبحانه أن هذا الإعطاء وهذه الصدقات خيرٌ كثيرٌ وأجر كبيرٌ للذين يريدون بأعمالهم وجه الله والدار الآخرة، وأولئك هم الفائزون فوزًا عظيمًا.

[٣٩] واعلموا أن ما أعطيتم من أموالكم الزائدة قروضًا للناس ليردوها لكم أكثر مما أخذوها منكم، فيزداد مالُكم ويزيد عند الناس؛ فهذا المال لا يزيد أجره عند الله، ولا يبارك الله فيه؛ بل يمحقه الله ويُذهب بركته، أما ما أعطيتم من زكاة وصدقةٍ تريدون بها وجه الله، فأصحاب هذه الخصلة الحميدة هم الذين يتقبل الله منهم ويضاعف لهم الأجر والثواب.

[٤٠] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي خلقكم وأوجدكم من العدم، وهو وحده الذي تكفل برزقكم، وهو وحده الذي يميتكم عند انتهاء آجالكم، وهو وحده الذي يبعثكم للجزاء والحساب مرةً أخرىٰ، هل من شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله من يستطيع فعل شيء من ذلك؟! فسبحان الله وتعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه عن شرك هؤلاء المشركين.

[٤١] واعلموا أيها الناس أن انتشار الفساد من فسوق وجدب ونزع للبركة ونقص في النسل والحيوانات وأوبئة وفتن وحروب وغير ذلك؛ كله بسبب ما اقترفتم من الذنوب والمعاصي، وترك أوامر الله ونواهيه؛ ليكون ذلك عقوبة لكم علىٰ أعمالكم السيئة، ثم ذكر سبحانه الحكمة من ذلك وهي لطفه جل وعلا بعباده ورحمته بهم كي يتوبوا إلىٰ الله ويستغفروه، ويخلصوا له العبادة، وتكون معاملاتهم طبقًا للشريعة.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

[٤٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين المكذِّبين: سيروا في الأرض بأبدانكم وقلوبكم سير نظرٍ وتأمّل، وتفكروا في نهاية وهلاك من قبلكم من الأمم الذين كذّبوا رسلهم، فقد كان معظمهم من المشركين.

[٤٣] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقبل بوجهه هو ومن معه لإقامة دين الإسلام القيم المستقيم من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يستطيع أحدٌ ردَّه أو تأجيله، وفي ذلك اليوم يتفرق الناس إلىٰ فريقين: فريقٍ في الجنة وفريقٍ في السعير، وقد بادر ﷺ في ذلك بجدٍّ واجتهاد فبلغ ونصح وجاهد في الله حق جهاده.

[٤٤] يخبر جل وعلا أن من كفر وجحد آيات ربه، فعليه أن يتحمل عاقبة ذلك، وهو الخلود في نار جهنم أبدًا، أما الذين وحَّدوا والله وآمنوا به، واتبعوا رسله؛ فأولئك يكسبون السعادة والفوز برضا الله والنعيم المقيم.

[٤٥] ليوفي جل وعلا الذين وحدوه وآمنوا به واتبعوا رسله من واسع فضله، ويغمرهم بكرمه وإحسانه، والله جل في علاه لا يحبُّ الكافرين؛ بل يمقتهم ويبغضهم.

[٤٦] يخبر جل في علاه أن من آياته الدالة علىٰ رحمته وقدرته، وإحيائه الموتىٰ وبعثهم: أنه سبحانه يرسل الرياح الملقحة قبل نزول المطر، فإذا رآها الناس استبشروا وفرحوا بها، وانتظروا نزول المطر، ثم يُنزل الله المطرَ فتصيبُ الناسَ رحمةُ الله؛ ومن آياته الدالة علىٰ رحمته: جريان السفن في البحر بأمر الله وإذنه، فيبتغي الناس من رزق الله وفضله بالعمل في التجارات وغيرها، لعلَّهم يشكرون الله علىٰ هذه النعم فيوحدونه في العبادة ويطيعونه ولا يشركوا به غيره.

[٤٧] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنه بعث قبل النبي محمد ﷺ رسلًا إلىٰ أقوامهم يأمرونهم بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وقد جاؤوهم بالآيات الواضحات التي تدل علىٰ أنهم رسلٌ من عند الله؛ فما كان من أكثرهم إلّا أن كذّبوهم، ولم يؤمنوا بهم، فكان أنِ انتقم الله من الذين أجرموا فأهلكهم بالعذاب، ثم أخبر سبحانه أنه نجىٰ الرسل وأتباعهم الذين آمنوا بالله وقاموا بما كُلِّفوا به.

[٤٨] واعلموا أن الله وحده هو الذي يرسل الرياح فتحمل السحاب وتمده وتوسعه في فضاء السماء علىٰ الهيئة التي أراد الله جل في علاه، ثم يجعل الله ذلك السحاب الواسع سحابًا كثيفًا ثخينًا بعضه فوق بعض، فترىٰ بعد ذلك المطر يخرج من خلاله؛ فإذا نزل المطر علىٰ من شاء الله أن ينزل عليهم من العباد؛ إذا هم فرحون يُبشِّر بعضهم بعضًا؛ لأن هذا المطر فيه حياتهم وحياة دوابهم وزروعهم، ولا يستغنون عنه، خاصَّة أصحابَ القرىٰ والمدن البعيدة عن الأنهار.

[٤٩] وبعد أن بين سبحانه وتعالىٰ حالهم بعد نزول المطر من الفرح والاستبشار، بين حالهم قبل نزوله بأنهم كانوا في غاية من الحيرة واليأس والاكتئاب والقنوط من رحمة الله.

[٥٠] ثم لفت سبحانه وتعالىٰ أنظار الناس إلىٰ الآثار المترتبة علىٰ رحمته بإنزال المطر، كيف أنه جل في علاه أحيا هذه الأرض بعد موتها وقحطها وجدبها، حيث أنزل عليها المطر فاهتزَّت وربت وأنبتت من كل زوج كريم، واعلموا أيها الناس أن الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها - كما أراكم - قادرٌ علىٰ إحيائكم بعد موتكم، وبعثكم ليوم الجزاء والحساب، والله علىٰ كل شيء قدير.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ
﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا
مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا
مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم
مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ
﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ
سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ
فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ
لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ
وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

[٥١] وبعد أن بين جل في علاه أحوال الناس عند رؤية الرياح التي تثير السحب المحملة بالأمطار، وأنهم يفرحون ويستبشرون، بين حالهم عند رؤية الرياح المحملة بالرمال والأتربة التي تفسد زروعهم وتتلفها، فإنهم يبادرون إلىٰ الكفر وجحود نعم الله عليهم، ويقولون: هذه كوارث وحوادث طبيعية، وهذا سونامي، وينسون مسبب الأسباب، وغفلوا عن أن تكون عقوبة لهم بسبب ذنوبهم، وما قالوا هذه المقولة إلا بسبب قسوة قلوب كثير منهم، وَبُعْدِهِمْ عن الله وعن شرعه.

[٥٢] واعلم يانبي الله أنك لا تُسمع الموتىٰ إذا دعوتهم، لأن هؤلاء المشركين كالموتىٰ، - فلا تحزن عليهم -، واعلم أيضًا أنك لا تُسمع الصمَّ إذا كلمتهم، فكيف بالصم لو ولَّوْا مدبرين، لأن هؤلاء المشركين كالصم الذين لا يسمعون.

[٥٣] ثم وجه جل وعلا الخطاب للنبي ﷺ تسلية له، فقال له: واعلم يانبي الله أنك لا تقدر علىٰ هداية وإرشاد العمي عن ضلالتهم؛ لأنهم لا يقبلون الإبصار للحق، بسبب انطماس بصائرهم، وهذا القرآن الذي أنزلناه عليك لا تستطيع أن تُسمِعَه سماع انتفاع وهدايةٍ إلّا لمن آمن وصدق بآيات الله، لأنهم مسلمون منقادون لأمر الله.

[٥٤] ثم ضرب جل وعلا مثلًا بمراحل خلق الإنسان، كعلامة ودلالة تدل علىٰ عظيم قدرته سبحانه وتعالىٰ؛ فبين عز وجل أنه بدأ خلق الإنسان من نطفة مهينة، ثم يخرج من رحم أمه ضعيفًا، وتستمر هذه المرحلة طيلة فترة الطفولة والصغر، ثم يصير بعد ذلك شابًّا قويًّا يعمل فيها ويكد للإنفاق علىٰ نفسه ومن يعول، ثم يصير شيخًا كبيرًا ويبدأ بالضعف حتىٰ يصل إلىٰ أرذل العمر، ويصير حاله كحال الطفل الصغير في كثير من تصرفاته، ثم بين سبحانه أنه يخلق ما يشاء من الضعف والقوة، وأن كل ذلك بعلم الله وقدرته وتدبيره.

[٥٥] ويوم أن تقوم القيامة سوف يفاجأ المشركون بسرعة مجيئها، فيُقسمون أنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعةٍ، وقصدهم الاعتذار لعل العذر ينفعهم، وقد كذبوا في ذلك، لأنهم ما زالوا علىٰ غَيِّهِمْ وكذبهم وافترائهم كما كانوا في الدنيا.

[٥٦] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن الذين منَّ الله عليهم بالعلم والإيمان بالله قالوا لهؤلاء الأفَّاكين: لقد مكثتم في حياتكم الدنيا وفي قبوركم مدَّةً كافيةً قدَّرها الله في اللوح المحفوظ إلىٰ يوم البعث، وهو زمن كافٍ لمعرفة الله والهدىٰ لو أردتم، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧]، ثم قال سبحانه: فهذا هو يوم البعث الذي تشاهدونه الآن بأم أعينكم أيها المكذبون، ولكنكم كنتم لا تصدقون أن البعث حق؛ بل كنتم تكذّبون به.

[٥٧] واعلموا أيها المشركون أنه في يوم القيامة لا تنفع الذين ظلموا - أنفسهم بالشرك، وتجاوزا حدَّهم بالجحود والتكذيب -؛ لا تنفعهم الأعذار، ولا تقبل منهم التوبة، ولا يُطلب منهم العُتبىٰ والرجوع إلىٰ الله، فقد فات الأوان.

[٥٨] ولقد بين جل وعلا للناس في هذا القرآن مِن كل مثل من أجل إقامة الحجة عليهم وإثبات وحدانية الله جل وعلا، ثم بين تعنت الكفار وتجبرهم وأنهم مهما آتيتهم يانبي الله من آية أو معجزة تدل علىٰ صدقك فإنهم يرمونك أنت وأتباعك بالبطلان، أي: أنكم متبعون للباطل، كما قال قوم فرعون: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢].

[٥٩] ثم بين سبحانه أنه بمثل هذا الطبع يطبع الله ويختم علىٰ قلوب هؤلاء الجهلة المكذّبين المعاندين فلا يدخلها خيرٌ، ولا ينفذ إليها هدًىٰ، وهذا الطبع والختم جزاءً علىٰ إصرارهم علىٰ الكفر وليس طبعًا ابتدائيًّا؛ فالله جل في علاه لا يظلم أحدًا أبدًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

[٦٠] فاصبر يانبي الله في دعوتك علىٰ ما تسمعه من تكذيب، وعلىٰ ما يصيبك من الأذىٰ، واعلم أن وعد الله بالنصر والتمكين والظهور والغلبة حقٌّ لا شكَّ فيه، ولا يستفزنّك الذين لا يوقنون بالله ولا يصدّقون أنبياء الله ولا يؤمنون به ولا باليوم الآخر.